الدراسات والأبحاث | Research Papers

الفكر الإصلاحي الخلدوني
وسؤال المواكبة للنسق المجتمعي المعاصر

Khaldunian reformist thinking and the question of coping with contemporary societal patterns.

Dr. BOUABID ELIZDIHAR | بوعبيد الازدهار (١)

(١*) أستاذ وباحث في الفكر الإسلامي، جامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال - المغرب.
البريد الإلكتروني: abdsamad2008@gmail.com

ملخص البحث

شكلت التجربة الإصلاحية الخلدونية نصًا مرجعيًا في قراءة الأحداث التاريخية من منظور قرآني عميق استبق حدوده الزمنية على اعتبار تلكم التحليلات والقراءات الاستشرافية التي كان ينظر بها المحلل والمفكر عبد الرحمن ابن خلدون لوقائع الأمور والأحداث، وقد كان لهذه التجربة عائدًا معرفيًا كبيرًا ومؤثرًا على جل المشاريع الإصلاحية المعاصرة.

ومن ثمة كانت فكرة البحث؛ استنطاق المتن الخلدوني وإبراز قيمته الحضارية والميزات التي فَضُل بها عن سابقيه من المؤرخين ولاحقيه؛ حيث شهدت له علماء العرب والعجم بالعظمة والسبق في بناء الصرح الحضاري عبر قراءته التاريخية والعلمية التعليلية. إلى جانب ذلك عمل البحث - أيضًا- على بيان الحاجة الماسة اليوم إلى استرداد مقولاته التحليلية واستيعاب الآليات المعرفية وتوظيفها في دراسة بعض الإشكالات الراهنة، مع رصد أهم أوجه التأثير الذي أحدثه هذا الفكر على بعض المشاريع الاصلاحية المعاصرة؛ وذلك من خلال مبحثين اثنين؛

المبحث الأول: الفكر الخلدوني؛ القيمة والعائد المعرفي والحضاري:

المبحث الثاني: الآثار المعرفية والمنهجية للفكر الخلدوني على المشاريع الإصلاحية المعاصرة - خير الدين التونسي أنموذجًا.

الكلمات المفتاحية: الفكر الخلدوني، المواكبة، المشاريع الاصلاحية، فقه التاريخ، المجتمعات المعاصرة...

Abstract

The Khaldunian reform experience was considered a written reference in understanding historical events from a deep Quranic perspective ahead of its time. Considering how the thinker Abd al-Rahman Ibn Khaldun read and analyzed different events which had a great cognitive effect on most contemporary reform projects.

Hence the idea of the following research: examining the Khalduni texts and highlighting their civilizational value and the features that distinguished them from other historians predecessors and their successors.in fact the Arab as well as the Persian scholars agreed on Ibn Khaldoun greatness and precedence in build ing the cultural edifice through historical and scientific explanatory reading. In addition to that, the research also work ed on demonstrating the urgent need today to recover its analytical argument s and to understand their cognitive mech anisms. thus we can use them in studyin g some of the current issues while mon itoring the most important aspects of the impact that Khaldouni thought has had on some current reform projects. And that is carried through the following topics:

The first topic: Khaldounian thought value and civilizational heritage:

The second topic: Khaldunian thought on recent reform projects the cognitive and methodological effects of Khair El-Din Al-Tunisi as an example.

Keywords: Khaldunian thought, support, reform projects, the jurisprudence of history, Contemporary societies.

مدخل تمهيدي

الحمد لله، حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين والمرسلين ﷺ وعلى آله وصحبه وعلى سائر أنبياء الله ورسله الطيبين الطاهرين رضي الله عنهم أجمعين.

ثمة حاجة ماسة اليوم أكثر من أي وقت مضى لإعادة الاستبصار بالقيم المعيارية في القرآن الكريم التي استلهمها ابن خلدون برؤية شاملة، من خلال فِقْهِه بحركة الفعل التاريخي، وعطاءات الإنجاز الثقافي والحضاري للعرب والمسلمين عبر تاريخهم الطويل، على اعتبار تلكم التقاطعات وعناصر اتصال بنيات المجتمع المعاصر ومكوناته بالذي عليه المجتمع القَبَلي الذي نشأ فيه النص الخلدوني؛ مجتمع تسود فيه العصبيات وتتصارع، تتعدد فيه الثنائيات وتتجاذب، بين بَدْوٍ وحَضَرٍ، بين ريف ومدينةٍ؛ إنّه مجتمع أعيد فيه إنتاج البنيات التقليدية

ذاتها عبر مفهوم مناقض تمامًا لهذا الأمر، وهو مفهوم التحديث الذي نادت به جل المشاريع الإصلاحية.

ومن ثمة، فلن يكون البحث في المنتوج الذي تركه ابن خلدون مجديًا اليوم دون مساءلة، ما إذا كان فكره قادرًا على مواكبة نسق التغيرات التي شهدتها البيئة المرجعية العربية والإسلامية التي أنجبته ونشأت ملاحظاته العلمية في أحضانها.

ويأتي هذا المقال، لإبراز قيمة المنتوج الخلدوني في الفكر الإنساني عموما، والفكر العربي الإسلامي خصوصًا، مع تتبع أوجه التأثير على المشاريع الاصلاحية المعاصرة ودلالتها الحضارية. وهل ما تزال الحاجة اليوم قائمة إلى استرداد المقولات التحليلية الخلدونية واستيعاب الآليات المعرفية وتوظيفها في دراسة بعض الإشكالات الراهنة التي يعرفها المجتمع العربي والإسلامي المعاصر؟.

ولمقاربة هذه الإشكالية ومعالجتها، ارتأيت تقسيم هذه المقالة إلى مبحثين اثنين:

- المبحث الأول: الفكر الخلدوني: القيمة والعائد المعرفي والحضاري:
- المبحث الثاني: الآثار المعرفية والمنهجية للفكر الخلدوني على المشاريع الإصلاحية المعاصرة - خير الدين التونسي أنموذجًا:

المبحث الأول:
الفكر الخلدوني: القيمة والعائد المعرفي والحضاري

شكلت التجربة الإصلاحية الخلدونية نصًا مرجعيًا في قراءة الأحداث التاريخية من منظور قرآني عميق استبق حدوده الزمنية على اعتبار تلكم التحليلات والقراءات الاستشرافية التي كان ينظر بها المحلل والمفكر عبد الرحمن ابن خلدون لوقائع الأمور والأحداث، ولا شك أن لهذه التجربة عائدًا معرفيًا كبيرًا ومؤثرًا على جل المشاريع الإصلاحية المعاصرة، وإن لم تظهر في مضمون تلكم التجارب تصريحًا، فتلميحًا، نظرًا لما تميزت به من قيم وخصوصيات عدة على الفكر الإنساني عمومًا، والفكر الإسلامي خصوصًا، حسبنا هاهنا أن نرصد بعضها:

أولًا: الاستمداد الخلدوني من الاستنطاق القرآني في قراءاته للواقع:

استمد ابن خلدون مفاهيمه ونظرياته من النص القرآني، إذ كان في عمله ملتزمًا بمفهوم الإسلام الكامل الجامع بين الروح والمادة، والدين والعلم، والعقل والنقل ذاته، ورفض كل ما يتعارض معه[٢]. وتأتي أهمية دراسة فكر ابن خلدون، واستيعاب منهجه في التحليل والتعليل للحركة التاريخية، وفق معايير الكتاب والسنة، في هذه المرحلة

(٢) انظر، **عطاء الإسلام الحضاري**، الجندي أنور، سلسلة «دعوة الحق»، رجب ١٤١٦هـ، العدد ١٦٣، السنة الرابعة، ص ١٨١.

بالذات، حيث المسلمون كما يقول عمر عبيد حسنة بحاجة أكثر من أي وقت مضى للعودة إلى الذات، وتحديد مواطن الخلل والقصور، ودراسة أسباب التقصير، واستئناف ما توقف في حياتهم الثقافية، من دراسة السنن المطردة، التي تحكم الحياة والأحياء، والتي احتل الحديث عنها، والشواهد على صدقيتها وثباتها، مساحات تعبيرية كبيرة في القصص القرآني، هذا العلم الذي توقف على الرغم من إلحاح القرآن المستمر على السير في الأرض، والاهتداء إلى قوانين السقوط والنهوض، والاتعاظ وتحقيق الوقاية الحضارية[٣].

ثانيًا: إعجاب رواد الفكر الغربي بالمنتوج الخلدوني وقبوله:

وذلك نظرًا لما أبدعه ابن خلدون من منهجية صائبة، فقد كان موضع إعجاب وتقدير الجميع في تلك الحقبة التي عاصرها، وقد استحوذ على إعجاب الألمان، بما جاء به نتيجة تذوقهم لروعة أسلوبه وعمق تفكيره، واستوعبوا ذلك من خلال الترجمة التي قام بها المستشرق «**هامار فون**- **Hamar Phone**»، والتي تناول فيها الدراسة التحليلية لفلسفة ابن خلدون بخصوص المجتمع والعصبية والدولة. وانطلاقًا من هذه النظرية، لم يُخفِ علماء أوروبا وفلاسفتها إعجابهم واعترافاتهم بتفوق هذا الفيلسوف العربي.

وقد سجلت عدة دراسات وأبحاث هذه الاعترافات على لسان كبار الكتاب والباحثين من الذين اهتموا بدراسة التراث العلمي الأصيل الذي خلفه ابن خلدون، والذي يؤكد جملة وتفصيلًا اجتهاداته المثالية، مثلما حظي بتقدير الكثرة من كل جهات المعمورة في الشرق والغرب، فقد عرفت مؤلفاته في مساحة واسعة من الانتشار في العالم الأوربي، فديوان العبر الذي خصصه للحديث عن حياة الأغالبة وتاريخ تعمير صقلية، قد ترجم إلى عدة لغات أجنبية، وكان ذلك سنة ١٨٤١م.

ثالثًا: البعد التجديدي الاجتهادي في تدوين التاريخ:

عَملت التجربة الإبداعية التجديدية الخلدونية خلال القرن الثامن الهجري على تحقيق نقلة نوعية ساهمت في بناء أسس للقواعد المنهجية في الحقل التاريخي، وقد سلك في تصحيح ذلك مسلك النقد لمناهج المؤرخين السابقين، إذ أجرى تحقيقات هامة على تراث أسلافه من المؤرخين: كابن هشام، وابن إسحاق، والواقدي، والبلاذري وابن عبد الحكم، والطبري، والمسعودي، وابن الأثير، وغيرهم، الذين درسوا التاريخ على أساس أنه سِجِلٌّ للحوادث والوقائع، فلم يتجاوزوا في ذلك إلا الوصف و السرد، ولم يحاولوا سبر أغوار الأحداث والكشف عن البواعث العميقة المستحقة التي تعمل وراء التغيرات الاجتماعية الظاهرة، وكانوا يكتفون بذكر الأسباب المباشرة معتمدين في رواية الحوادث على الإسناد.

(٣) راجع مقدمة عمر عبيد حسنة لكتاب «**التأصيل الإسلامي لنظرية ابن خلدون**»، لعبد الحليم عويس، كتاب الأمة ٥٠، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة - قطر، الطبعة الأولى - ذو القعدة ١٤١٦هـ- أبريل ١٩٩٦م، صص ٥، ٦.

يقول ابن خلدون في هذا الصدد، بأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، لم تُحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني (...)، فربما لم يُؤمن فيها من العثور، ومَزَلَّة القَدَم و الحَيْد عن جَادة الصدق[٤]، واستبعد بعض أخبارهم على أنها محض اختلاق غير ممكن الحدوث بسبب جهلهم لطبائع الأشياء وقوانين العمران[٥].

وهنا يتجلى الفرق في الاجتهاد الخلدوني الذي انصبّ على اعتبار التاريخ كموضوع له صلة جوهرية بأعمال البشر ونشاطاتهم وأوضاعهم وأحوالهم في حياتهم واجتماعاتهم. فقام بدراسة تحليلية لتاريخ العرب والدول الإسلامية، وعرض محتوياته على معيار العقل حتى تسلم من الكذب والتزييف، فكان بذلك مجددًا في علم التاريخ، مستفيدًا في منهجه النقدي من علماء الجرح والتعديل في قبول المعطيات التاريخية أو ردها، ويؤكد ذلك ابن خلدون في غير ما موضع أنه على الباحث ألا يقبل شيئًا على أنه حق إلا بعد أن يتأكد على أنه كذلك، فيجدر بالمرء أن لا يتأثر بآراء مسبقة أو يتخذ من الأساطير وآراء الآخرين غير المؤكدة أساسًا لدراسته، ولهذا كان ابن خلدون: «يقرأ لمفكري عصره وأسلافه بقصد المجاورة والكشف، يستشهد ويشكك وينتقد ويصحح وينتقي ويقارن، ثم يأتي إلى الاستنتاج»[٦].

وقد سعى ابن خلدون من كل هذا: تتويج التاريخ - بما هو أخبار الدول، والمسالك والممالك، والآداب السلطانية- أبًا للعلوم الحيوية لعصره، وجعله علمًا بالمعنى المتعارف عليه عند المناطقة، وهو عندهم مكوَّن من تصورات وتصديقات، وما قام به ابن خلدون هو كشف المعيار الذي تقاس به الروايات، الذي أطلق عليه (طبائع العمران) الذي ترجع إليه الحوادث والوقائع لمعرفة الإمكان أَو عدم الإمكان. وعلم التاريخ كان قبله يفتقر إلى هذا المعيار والمحدد الذي تقاس به الأخبار والروايات، وكان التأليف التاريخي مقصورًا على ظاهر التاريخ الذي هو (أخبار الأيام والدول)، متجاهلًا لباطنه الذي هو نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق[٧].

رابعًا: التفعيل المنهجي للمقاصد الشرعية في تفسير التاريخ وقوانين الاجتماع البشري:

يعد ما جاء به ابن خلدون في مجال دراسة العمران البشري وبيان أحوال الأمم والدول وكيفية تبدلها، فتحًا جديدًا، وابتكارًا فريدًا لم يُسبق إليه من قبل؛ ذلك لأنه استطاع أن

(٤) **مقدمة العلامة ابن خلدون**، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، (د.ت)، صـ ٢١.

(٥) للتفصيل يرجى الاطلاع على **مقدمة ابن خلدون**، صـ ٣٩-٤٦-٤٧.

(٦) **اتجاهات نظرية في علم الاجتماع**، عبد الباسط عبد المعطي، سلسلة عالم المعرفة (٤٤)، الكويت، أغسطس ١٩٨١م، صـ ٥٦.

(٧) **مقدمة ابن خلدون**، (المرجع السابق)، صـ ١٦.

يبني منهجًا جديدًا لدراسة التاريخ والمجتمع واستنباط العلل والأسباب التي تحكم حركتهما، واستطاع بهذا المنهج أن يقدم «أصول منهج مميز لتفسير حركة التاريخ انتقل به من مرحلة الاكتفاء بالسرد والعرض والتجميع، إلى محاولة استخلاص العبر، واستكشاف السنن والقوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية والحضارية»[٨].

فقد نقل الدرس التاريخي من الارتكاز على الإسناد إلى الارتكاز على التأويل التعليلي المصلحي كما يقول- أستاذنا فضيلة الدكتور عبد الرحمن العضراوي[٩]، على اعتبار أن علم العمران البشري الذي جاء به ابن خلدون هو فكر تاريخي في الصميم والمنطلق، يقوم أساسًا على النظر العقلي والتحقيق في الأسباب والتعليل النظري، ومن ثمة فقد جاءت قوانينه أقوى أساسًا، وأمتن بُنيانًا، وأقرب إلى وقائع الأمور، كما تنطق بذلك كتاباته المرجعية في بابها.

ونافلة القول، إن هذه جملة من الميزات التي فَضُل بها ابن خلدون عن سابقيه من المؤرخين ولاحقيه، إذ شهدت له علماء العرب والعجم بالعظمة والسبق في بناء الصرح الحضاري عبر قراءته التاريخية والعلمية التعليلية، وقد أردت من خلال هذا الدراسة، الوقوف على قيمة ابن خلدون وعائده على الفكر الإنساني من خلال رؤيته التجديدية الاجتهادية في تفسير أحداث ومجريات التاريخ من منطلق سنني؛ إذ جعل من القوانين والنواميس الإلهية مدخلًا مهمًا للتفسير والنظر والتعليل، لا السرد وذكر الأحداث كما كان حال الذين سبقوه من المؤرخين، دون تحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، ودون اعتماد معيار ومحدد منهجي للتمييز بين غث هذه الأخبار وسمينها، وبين صحيحها وباطلها، والسبب في ذلك واضح كما ذكر ابن خلدون هو: «جهلهم بأحوال وطبائع الكائنات»[١٠].

المبحث الثاني:
الآثار المعرفية والمنهجية للفكر الخلدوني على المشاريع الإصلاحية المعاصرة

- خير الدين التونسي أنموذجًا:

لاشك أن ما أنتجه ابن خلدون من نظريات ومقولات تحليلية في قراءاته للنسق المجتمعي القَبلي الذي تربى بين أحضانه، كان له امتداد واسع عبر الحقب التاريخية التي أعقبته، وهذا قد يعطي للنظريات والمفاهيم الخلدونية قدرة على دراسة مجتمعاتنا العربية الإسلامية المعاصرة وتحليل منظوماتها

(٨) **السنن الحضارية لبناء الأمم وانهيارها من خلال المفكرين المسلمين المحدثين**، إبراهيم رضا، أطروحة دكتوراه الدولة، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، ٢٠٠٠م/٢٠٠١م، صـ ٢١٠.

(٩) يرجى الاطلاع على مقال الدكتور عبد الرحمن العضراوي حول: «**التطبيق المقاصدي في المنهج الخلدوني**»، منشور بموقع الرابطة المحمدية للعلماء، بتاريخ ٢٣ ذو القعدة ١٤٣٠هـ/ الموافق لـ ١١ نونبر ٢٠٠٩م.

(١٠) راجع صـ ٣٩، ٤٦-٤٧ من **مقدمة ابن خلدون**.

الاجتماعية الراهنة، وإذا كان الأمر كذلك، فإنه ليس من باب الصدفة أن نجد جل الإشارات الواردة في محاولة تقديم تفسيرات للعالم المتغير كانت متأثرة بصفة أو بأخرى بالعلامة ابن خلدون، خاصة في المغرب الكبير حيث لم يختفي ابن خلدون أبدًا عن الباحثين ورواد المشاريع الإصلاحية[١١].

وفي نفس الصدد يقول الأستاذ علي أمليل في مداخلته في إحدى الندوات أن «مفكري الإصلاح الحديث رجعوا إلى ابن خلدون أكثر مما رجعوا إلى غيره، ولعلهم وجدوا في حديثه عن المجتمع والسياسة استقلالية عن الدلالة الدينية أكثر مما وجدوا عند غيره من القدماء، لذا استعملوا استعمالًا واسعًا المفاهيم الخلدونية مثل: "الوازع"، و"الخلل"، و"العمران"، و"الملك القهري"، وغيرها من المفاهيم، بل لجأوا إلى الصياغة النظرية الخلدونية ليترجموا بها نوازل العصر»[١٢]، وهذا ما يؤكد حضوره، وبقوة في المشاريع النهضوية سواء في العالم العربي أو عند العثمانيين الأتراك.

يشير برنارد لويس في كتابه «كيف انفتح الإسلام على الغرب» إلى أن «الرحلات التركية كانت قد اتخذت منعرجًا جديدًا ابتداء من منتصف القرن الثامن عشر، فأصبحت تحتوي مضمونًا تأمليًا، وسبب ذلك التجاء السفراء الأتراك إلى مقدمة ابن خلدون لتكون مرجعًا نظريًا يؤطر مشاهداتهم وأحكامهم»[١٣]. وقد كانت هذه بداية لتوظيف المتن الخلدوني بوصفه دليل عمل للإصلاح في محاولة لبناء نظرية للنهضة في العالم العربي والإسلامي، قائمة على أسس محلية وغير مستوردة، فلم يكن العرب يجهلون المقدمة كما يدعي بعض الباحثين، وإنما كانت متداولة في العالم العربي، خاصة بعدما صدرت طبعتها الأولى في مطبعة بولاق سنة ١٨٥٧؛ إذ كانت المقدمة معروفة خاصة في المغرب وتونس؛ ففي تونس مثلًا كانت حاضرة منذ عهد حمودة باشا الذي طالب من العالِم علي الآجري (ت ١٨١٠م)، أن يستنسخ له الكتاب ويُصلح تحريفاته.

وقد ذكر صاحب «الإتحاف» أن حمودة باشا كان ولوعًا بالنظر في مقدمة كتاب ابن خلدون، وأنه رأى نسخة عليها توقيفات كثيرة بخطه[١٤]، وعلى هذا الاعتبار يعد ابن خلدون المرجع والمصدر الأكثر حضورًا في دراسات المفكرين المسلمين المحدثين في بحثهم لسنن الله تعالى التي تحكم قيام الحضارات ونهوضها، أو انحدارها وانهيارها، وحضوره في هذه الكتابات حضور متميز إلى درجة يصعب معها أن نجد

(١١) **الإسلام ونزوات العنف واستراتيجيات الإصلاح**، الحداد محمد، رابطة العقلانيين العرب، ودار الطليعة للطباعة والنشر- بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى- ماي ٢٠٠٦، صـ ٩٦، بتصرف.

(١٢) انظر مداخلته حول: «**ما هو الإصلاح بمفهوم إسلامي؟**»، في إطار أشغال الأيام الدراسية- من ٦ إلى ٩ رجب ١٤٠٤هـ/ الموافق لـ ٢٠- ٢٣ أبريل ١٩٨٣م، حول: «الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر»، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط (جامعة محمد الخامس)، سلسلة: ندوات ومناظرات، رقم [٧]، صـ ٣٢ بتصرف.

(١٣) **Lewis Bernard , Comment l'Islam a découvert l'Europe, Trad. de l'anglais Gallimard, ١٩٨٤, p ١١٠**، نقلا عن محمد الحداد في كتابه « **الإسلام ونزوات العنف واستراتيجيات الإصلاح**»، صـ ٩٦.

(١٤) **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس عهد الأمان**، ابن أبي الضياف أحمد، الدار العربية للكتاب، طبعة ٢٠٠١م، ٣/١٣.

ولو مفكرًا واحدًا من هؤلاء لم يستلهم من ابن خلدون جملة من آرائه ونظرياته حول جانب من جوانب العمران البشري[١٥].

كان خير الدين التونسي واحدًا من هؤلاء المفكرين والمصلحين المعاصرين الذين رجعوا إلى التجربة الخلدونية واستمد أسسه ومنهجه الإصلاحي، ومن ثمة فقد استعيد المتن الخلدوني في عهد الوالي المصلح أحمد الباي، ثم برز بقوة في كتابات الوزير المصلح خير الدين باشا[١٦]، فقد بدا تأثره بابن خلدون واضحًا في برنامجه الإصلاحي الذي ضمَّنه في مقدمة كتابه «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك»، بل إن التأثر بدا واضحا منذ الجملة الأولى من خطبة الكتاب إذ يقول: «سبحان من جعل من نتائج العدل العمران...»[١٧]، ويبدو التأثر جليًا من خلال الأفكار الآتية:

أولًا: ظاهرة المدنية والتمدن في فكر خير الدين التونسي:

لقد أضحى التمدن ركيزة إصلاحية لفكر خير الدين التونسي وضرورة حضارية للعرب والمسلمين، ولعل ذلك راجع إلى تأثره الكبير بالعمران الأوروباوي والاستفادة منه في مشروعه الإصلاحي من خلال رحلاته إلى أوربا والذي بقي بها تسع سنوات، وذلك عندما اعتزل الوزارة وتوجه كسفير إلى ألمانيا وفرنسا وانجلترا وإيطاليا والنمسا والسويد وهولندا والدانمارك وبلجيكا في مهمة خاصة، فمكنته هذه ورحلاته السابقة من دراسة الأسس التي قامت عليها المدنية الغربية وبنت عليها الأمم الكبرى قوتها ونفوذها.

ويعد كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، الكتاب الذخيرة الذي صدر سنة ١٨٦٨م، وهو أحد أهم المؤلفات التي شرحت - في وقته- ما وصل إليه التمدن الأوربي من تفوق وتوسع، يكاد سيله يجرف ما حوله من شدة تدفقه وتمدده، الوضع الذي خشي منه التونسي على الأمة الإسلامية من الغرق إذا لم تنتبه إلى ضرورة الاقتباس منه في مجال التنظيمات الدنيوية، وذلك حين قال: «إن التمدن الأوروباوي تدفق سيله في الأرض، فلا يعارضه شيء إلا استأصلته قوة تياره المتتابع، فيخشى على الممالك المجاورة لأوربا من ذلك التيار، إلا إذا حذو حذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية فيمكن نجاتهم من الغرق»[١٨]، على أساس أن نتخير من هذه التنظيمات الدنيوية، كما يقول في مقام آخر، ما يكون بحالنا لائقًا، ولنصوص شريعتنا مساعدًا وموافقًا، عسى أن نسترجع منه ما أخذ من أيدينا، ونخرج باستعماله من ورطات التفريط الموجود فينا»[١٩].

وقد عمل خير الدين التونسي على استنطاق التراث الإسلامي ليتوافق العصر معه بالأخذ من

(١٥) **السنن الحضارية لبناء الأمم وانهيارها من خلال المفكرين المسلمين المحدثين**، رضا إبراهيم، صـ ٢١٠.

(١٦) طالع كتاب «**الإسلام ونزوات العنف واستراتيجيات الإصلاح**» محمد الحداد، صـ ٩٧.

(١٧) راجع، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، خير الدين التونسي، تحقيق ودراسة: معن زيادة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية- ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥ م، (طبعة مزيدة ومنقحة) صـ ٥٩.

(١٨) **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، خير الدين التونسي، صـ ٢٠٦.

(١٩) **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، خير الدين التونسي، صـ ١٤٨.

تجارب النهضة الفرنسية دون المساس بثوابت الحضارة الإسلامية[٢٠]، فقد كان يرى ضرورة الأخذ بالمعارف وأسباب العمران الأوروبي؛ لأنها طريق المجتمع إلى النهوض. ويكمن وجه التأثر بالتجربة الخلدونية ما ذكره أحمد القديري في موضع آخر، على أن الناظر إلى المشروع الإصلاحي عند خير الدين التونسي يجد نفسه أمام نموذج متكرر من فكر الإصلاح الإسلامي منذ فجر الإسلام أشبه من ابن خلدون فجاء بعد عصره، ونشأ في غير مِصره[٢١].

ثانيًا: حضور الهم التعليمي في الفكر الإصلاحي عند خير الدين التونسي:

كان خير الدين التونسي على وعي تام برسالة التعليم في صياغة شروط التقدم، على اعتبار أن نهوض الأمم وسقوطها وتقدمها وتراجعها منوط بالتربية والتعليم، لذلك فقد كان واعي كل الوعي بأنه لا يمكن الاستعداد لمنازلة الغرب بمثل سلاحهم إلا بالعلم وأسباب العمران، وكان هذا دافعه وهاجسه في إصلاح التعليم في البلاد التونسية، وعندما أتيحت له الفرصة أن يكون على رأس منصب الوزير الأكبر خلفًا لصهره لمصطفى خزندار، سنة ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م، نهض بالبلاد، وبعث فيها روحًا جديدًا، وأصلح كثيرًا من شؤونها، ومن بينها إصلاح ميادين الإدارة والتعليم.

إن اهتمام خير الدين التونسي بالتعليم شكَّل السبيل الأول في ما كان يصبو إليه من إصلاحاته في الدولة، فقد أولاه العناية الكبيرة والبالغة، ويتجلى هذا الاهتمام في إنشاء «المدرسة الصادقية» نسبة إلى «الباي محمد الصادق»، على نمط «الليسه» الأوروبية ودورها الكبير في دفع عجلة التطور والتحديث في تونس، وقد شملت برامج التعليم بها العلوم الحديثة واللغات الأجنبية، إلى جانب اللغة العربية وعلوم الدين، وقد استعان برجال من العلماء في إعادة تنظيم الدراسة والتعليم بجامع الزيتونة، وأنشأ مكتبة جديدة تحت اسم المكتبة «العبدلية» على نمط المكتبات الحديثة، وشجع الطباعة، واستقدم بعض المصريين واللبنانيين للعمل فيهما، وطوّر الصحافة وأدخل فنونًا جديدة بها، فكثرت المراسلات والمبادلات، واتسع باب جلب الكتب المطبوعة في الشرق، وترويجها بتونس»[٢٢].

وكان هذا وليد تأثير كبير للتونسي فيما صادفه في البلاد الأوربية، إذ أفرد لهذا مطلبًا سماه «كثرة خزائن الكتب وحسن إدارتها عندهم»[٢٣]، وفي هذا الصدد يقول أحمد أمين: «... وفي التعليم أنشأ مدرسة عصرية تعلم فيها العلوم العربية والشرعية وبجانبهما الثقافة العصرية مع تعليم اللغات التركية والفرنسية والإيطالية، وأصلح التعليم بجامع الزيتونة، وجمع الكتب المبعثرة في المساجد، وكوَّن بها مكتبة كبيرة، ووهب له

(٢٠) **نحو مشروع حضاري للإسلام**، القديري أحمد، سلسلة «دعوة الحق»، ربيع الأول ١٤١٧هـ، العدد ١٧١، السنة ٥، ص ١١٠.

(٢١) راجع كتاب «**نحو مشروع حضاري للإسلام**»، لأحمد القديري، [المرجع السابق]، ص ١١٦ بتصرف.

(٢٢) **الحركة الأدبية والفكرية في تونس**، ابن عاشور محمد الفاضل، معهد الدراسات العربية العليا، القاهرة- ١٩٥٥، ص ٢٤ وما بعدها.

(٢٣) انظر كتابه: «**أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**»، تحقيق ودراسة: د. معن زيادة، ص ٢٣٧.

من عنده ألفا ومائة كتاب مخطوط، ونظمها تنظيمًا حديثًا، وحسّن مطبعة الدولة ووكّل إليها نشر الكتب العلمية والأدبية، وأصلح إدارة "الرائد التونسي"، وهي الصحيفة الرسمية للحكومة، وشجع على نشر المقالات فيها، كان ينشر فيها أفكاره السياسية، وألزم الموظفين بقراءتها..»[٢٤].

وخلاصة ما يمكن استنتاجه من خلال الاهتمام الكبير والعناية البالغة التي كان يوليها خير الدين التونسي للمسألة التعليمية: هو وعيه العميق برسالة التعليم ودورها في تحديد مسار الأمم في الحاضر والمستقبل، متأثرًا في ذلك بما صادفه في البلاد الأوربية من حضارة وعمران، مركزًا في ذلك على العلم والتعليم للدفع بالبلاد التونسية نحو مستويات عالية من النهضة والتحديث، على اعتبار أن التربية والتعليم هي سبيل الإصلاح، والبناء والنهوض، وذلك من خلال سعيه المتواصل لإصلاح منظومة التعليم، وخاصة جامع الزيتونة.

ثالثًا: أوجه تأثير التجربة الخلدونية على الفكر الإصلاحي عند خير الدين التونسي:

كثيرة هي تجليات المعالم الخلدونية وآثارها على فكر خير الدين التونسي التي شكلت منطلقًا مرجعيًا وتصوريًا في مشروعه الإصلاحي، يمكن إجمالها في الآتي:

١. اعتبار التعليم أهم أسباب التمدن والعمران في الغرب:

حصلت لخير الدين التونسي قناعة بأن التعليم عنصر من عناصر النهوض الحضاري، وقد ذكر في سياق حديثه عن تراتيب التعلم والتعليم في فرنسا أنه «لما كان تقدم أهل أوربا في ميدان التمدن الذي من نتائجه الاختراعات، إنما كان بتمهيد طرق العلوم والفنون، وتسهيل أسباب استحصالها»[٢٥].

ويقول في موضع آخر: ومن آثار اعتنائهم بتوسيع دوائر العرفان، الذي هو أساس العمران والتهذيب لنوع الإنسان، كثرة خزائن الكتب، الجامعة لسائر الفنون، وتسهيل طرق الانتفاع بها بحسن الإدارة والترتيب الحاسم لمواد العوائق[٢٦]، في قناعة من أنه على هذا يقاس سائر أسباب التمدن[٢٧]، في إشارة إلى تشجيع الغرب للعلم والتعليم وتوفيرهم للفضاءات المناسبة والكتب المتنوعة للباحثين.

٢. العمران:

إذ خصّص خير الدين التونسي في مقدمته مطلبًا سماه: [اقتضاء الظلم لخراب العمران][٢٨]، وهذا يتطابق ومقولة ابن خلدون:

(٢٤) **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، أحمد أمين، موسوعة أحمد أمين الإسلامية، دار الكتاب العربي- بيروت، [د.ت]، صـ ١٦٨، ١٦٩.

(٢٥) **أقوم المسالك**، خير الدين التونسي، صـ ٢٣١.

(٢٦) **نفسه**، صـ ٢٣٧.

(٢٧) للتفصيل يرجى الاطلاع على مقدمة خير الدين التونسي، لكتابه **أقوم المسالك**، صـ ٢٣٩ وما بعدها.

(٢٨) **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، خير الدين التونسي، صـ ١٥٦.

التي تقول بأن: [الظلم مُؤذن بخراب العمران][٢٩]، على اعتبار أن الظلم والاستبداد مقتضيان لخراب العمران، يقول خير الدين التونسي في مقدمته أنه: «من تصفح الفصل الثالث من الكتاب الأول من مقدمة ابن خلدون، رأى أدلة على أن الظلم مؤذن بخراب العمران كيفما كان»[٣٠]، فكان بهذا يُفضِّل مفهوم العمران، ليعني به الحضارة والمدنية، كما يقول معن زيادة[٣١]، متبعًا في استعمال هذه العبارة طريق ابن خلدون.

٣.على مستوى التأليف:

ألَّف خير الدين التونسي مقدمة كتابه «أقوم المسالك» على شاكلة مقدمة ابن خلدون، وأراد لنفسه «أن يكون مثل ابن خلدون، وأراد لكتابه أن يكون كمقدمة العبر يعالج أسباب الانحطاط والتخلف، ويحتوي على فذلكة للتاريخ»[٣٢]. وقد كان خير الدين مفكرًا ومصلحًا دوّن أفكاره في كتابه «أقوم المسالك» ألَّفه على شاكلة مقدمة ابن خلدون. يقول أحمد أمين في كتابه «زعماء الإصلاح في العصر الحديث»: «عكف خير الدين أثناء اعتزاله الوزارة على وضع كتابه سماه "أقوم المسالك"، وكان في ذهنه عند تأليفه أن يَحذُوَ حَذْوَ تاريخ ابن خلدون، يؤلفه بروح العصر، ومطالب العصر، فاشتمل أيضاً على مقدمة وتاريخ. فأما المقدمة فقد أراد منها البحث في حالة البلاد الإسلامية وأسباب انحطاطها بعد ازدهارها، وكيفية إصلاحها، وأما التاريخ فقد عرض فيه حال الممالك الأوربية»[٣٣].

ومنذ ظهور الكتاب تجاوز الاهتمام بالمقدمة، الاهتمام بالكتاب حتى غطى هذا الاهتمام بالمقدمة على سائر أجزاء الكتاب، وأصبحت الإشارة إلى أقوم المسالك تعني الإشارة إلى المقدمة وحدها»[٣٤]، كما حصل تمامًا مع مقدمة ابن خلدون.

٤. الوعي بالتاريخ:

يرى خير الدين التونسي أن الإعراض عن استقراء التاريخ، والإعراض عن فهم "أحوال الوقت" واختلاف "تنزيل الأحكام" وتطبيق القوانين والشرائع بحسبها، هي من أهم العوائق التي تعيق "التنظيم الدنيوي"، و"استقامة نظام الدين "معا"[٣٥]، يقول معن زيادة: «يمكننا أن نجد عنصر تشابه يضع خير الدين على مستوى ابن خلدون في معالجته لمسألة وعي التاريخ»[٣٦]. وهذا يؤكد محاولة خير الدين في اتباع ونهج التقاليد الأصيلة التي وضعها الفيلسوف التونسي ابن خلدون للفكر الإسلامي ولمنهجه العلمي في قراءة التاريخ، وقد ذكر في مقدمته سلسلة من الأفكار

(٢٩) **مقدمة ابن خلدون**، عبد الرحمن ابن خلدون، صـ ٢٧٢.

(٣٠) انظر كتابه **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، صـ ١٥٦.

(٣١) **نفسه**، صـ ١١٤ وما بعدها، بتصرف يسير.

(٣٢) راجع كتاب «**خير الدين التونسي وكتابه أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**»، صـ ٨٥.

(٣٣) **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، أحمد أمين، موسوعة أحمد أمين الإسلامية، دار الكتاب العربي- بيروت/ لبنان، [د.ت]، صـ ١٥٨

(٣٤) **خير الدين التونسي وكتابه أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، معن زيادة، صـ ٣١.

(٣٥) انظر، **مقدمة خير الدين التونسي**، صـ ٤٩.

(٣٦) انظر، **خير الدين التونسي وكتابه أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، المرجع السابق، صـ ٨٥.

التي خرج بها والتي تقدم فلسفته للتاريخ ورؤيته لزمانه.

محاولة للختم

إن الإلمام بدراسة جانب محدد من جوانب حياة ابن خلدون، وتقديم نظرة شمولية عن فكره المنهجي، عملية تستوجب الاستيعاب الكامل لعطاءاته المعرفية في مجالات لها اتصال بنشاطات الفرد والدولة والأسرة والمجتمع، إذ الحاجة ما تزال ماسة للإحاطة بالمنهج الإصلاحي الخلدوني. وفي ختام هاته الدراسة نسجل جملة من الخلاصات والاستنتاجات التي تم التوصل إليها في هذه المحاولة، والتي يمكن إجمالها في الآتي:

- ✓ أن علم العمران البشري الذي جاء به ابن خلدون هو فكر تاريخي في الصميم والمنطلق، يقوم أساسًا على النظر العقلي والتحقيق في الأسباب والتعليل النظري للوقائع والأحداث.
- ✓ مواكبة الفكر الخلدوني للنسق المجتمعي المعاصر، على اعتبار أن جل الأفكار التربوية التي أقرها ابن خلدون في القرن الثامن الهجري قد أكدتها اللسانيات التربوية الحديثة، وبالتالي فقد غطت نظرياته في التربية والتعليم جانبًا كبيرًا من النظريات المعاصرة، وما ذكره ابن خلدون يصلح لأن يكون محورا لفلسفة تربوية عربية مشتركة، غير أن ما يعيق الاستفادة من مشروعه هو افتقاد تلكم الآلة المفعلة للاستمداد منه بالآليات والمداخل المنهجية للنهضة والتغيير، إذ الشعور بالحاجة إليه لم يبرز إلا في فترة متأخرة، كما يقول محمد الحداد[٣٧]، إذ ظل ابن خلدون يُقرأ بصفته المؤرخ للمغرب الأقصى وللبربر لا أقل ولا أكثر.
- ✓ أنّ الأزمة التي تعانيها الأمة اليوم هي في عمقها أزمة تربية، فَحلّها يتوقف أوّلا وقبل كلّ شيء على صلاحية وشموليّة التصوّر التربوي لنوعية الإنسان المراد إنتاجه.
- ✓ افتقار جلّ المشاريع الإصلاحية العربية إلى الوعي التاريخي بالحاضر وبأسئلته ومتطلباته. وكذا غياب الوعي باللحظة الزمانية لمشروعهم.
- ✓ جل المشاريع التنويرية العربية كانت تجربة غير محلّية، ولم تستطع أن تجعل من الأنوار ظاهرة عربية، إذ لم تراعي الخصوصية المجتمعية العربية، ولم تكلف نفسها عناء تتبع ورصد مناهج المصلحين والمجددين السابقين من مفكّري الإصلاح والتحديث بالعالم العربي والإسلامي؛ كابن خلدون وغيره، ممن وضعوا قواعد عمرانية سننية لاستئناف البناء الحضاري.

البيبليوغرافيا

١. **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس عهد الأمان**، ابن أبي الضياف أحمد، الدار العربية للكتاب، طبعة ١٩٨٠م.

(٣٧) **الإسلام ونزوات العنف واستراتيجيات الإصلاح**، محمد الحداد، ص ٩٥، بتصرف.

٢. **اتجاهات نظرية في علم الاجتماع**، عبد الباسط عبد المعطي، سلسلة عالم المعرفة (٤٤)، الكويت، أغسطس ١٩٨١م.

٣. **الإسلام ونزوات العنف واستراتيجيات الإصلاح**، الحداد محمد، رابطة العقلانيين العرب، ودار الطليعة للطباعة والنشر- بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى- ماي ٢٠٠٦م.

٤. **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، خير الدين التونسي، تحقيق ودراسة: معن زيادة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية- ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥ م، (طبعة مزيدة ومنقحة).

٥. **الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر**، سلسلة: ندوات ومناظرات، رقم [٧]، مجموع أشغال الأيام الدراسية - من ٦ إلى ٩ رجب ١٤٠٤هـ/ الموافق لـ ٢٠- ٢٣ أبريل ١٩٨٣م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط - جامعة محمد الخامس، المملكة المغربية.

٦. **التأصيل الإسلامي لنظرية ابن خلدون**، لعبد الحليم عويس، مقدمة عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة ٥٠، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة - قطر، الطبعة الأولى - ذو القعدة ١٤١٦هـ- أبريل ١٩٩٦م.

٧. **الحركة الأدبية والفكرية في تونس**، ابن عاشور محمد الفاضل، معهد الدراسات العربية العليا، القاهرة- ١٩٥٥م.

٨. **عطاء الإسلام الحضاري**، الجندي أنور، سلسلة «دعوة الحق»، رجب ١٤١٦هـ، العدد ١٦٣، السنة الرابعة.

٩. **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، أحمد أمين، موسوعة أحمد أمين الإسلامية، دار الكتاب العربي- بيروت، [د.ت].

١٠. **السنن الحضارية لبناء الأمم وانهيارها من خلال المفكرين المسلمين المحدثين**، إبراهيم رضا، أطروحة دكتوراه الدولة، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، ٢٠٠٠م/٢٠٠١م، صـ ٢١٠.

١١. **Comment l'Islam a découvert l'Europe , Lewis Bernard , Trad. de l'anglais Gallimard, ١٩٨٤**

١٢. **مقدمة العلامة ابن خلدون**، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، (د.ت).

١٣. **نحو مشروع حضاري للإسلام**، القديري أحمد، سلسلة «دعوة الحق»، ربيع الأول ١٤١٧هـ، العدد ١٧١، السنة ٥.

١٤. **التطبيق المقاصدي في المنهج الخلدوني**، مقال للدكتور عبد الرحمن العضراوي، منشور بموقع الرابطة المحمدية للعلماء، بتاريخ ٢٣ ذو القعدة ١٤٣٠هـ/ الموافق لـ ١١ نوفمبر ٢٠٠٩م.